البعثة العلمية العمرية و دوروها في توثيق الروابط الثقافية بين القطرين المشرق الإسلامي و مغربه

ظروف بلاد المغرب قبل البعثة العمرية 99-101 هـ

بعد أن أتم العرب فتح بلاد المغرب و صيروه مصر إسلاميا أصبح تابعا لمركز الخلافة الإسلامية بدمشق . صحيح أن بعض المصادر و الأبحاث التاريخية تحدثت أن اسلمة بلاد المغرب – لكن يبدو ذلك نظريا فقط – و إلا كيف تفسر بقاء بعض القبائل البربرية تدفع الجزية بمعية الاقليات المجتمعية من اليهود و النصارى (أفارقة و بزنطيين) إلى جانب ذلك فإن غالبية المجتمع المغربي لم يتعمقوا بعد في فهم مقاصد الشريعة و أحكامها و حسبنا في ذلك ما أكده ابن غدارى المراكشي (ت بعد 712 هـ) ، < قوله لا زالت الخمر في بلاد المغرب حلالا حتى جاءت البعثةالعمرية> و سرد ذلك في تقديري يعود إلى الأسباب التالية :

1- الطبيعة الطبوغرافية لبلاد المغرب لم تساعد الفاتحين الأوائل للتغلغل في الوسط القبلي على محدودية تحصيلهم العلمي
2- أن معظم الفاتحين كانوا من الجند المقاتلة و أن عددهم لم يكن كافيا لتأطير كل الجغرافيا خاصة إذا علمنا أن عددا كبيرا من هؤلاء فضلوا الاستقرار بالأندلس فجاءت البعثة العلمية لتؤازر جهود أوائل الفاتحين أمثال عقبة بن نافع ـ مهاجر بن أبي دينار ـ حسان بن النعمان ـ موسى بن نصير في تثبيت أحكام الشريعة في نفوس البربر

أهداف البعثة : يستشف من خلال ما ذكرته المصادر التاريخية أن عمر بن عبد العزيز (99 - 101 هـ) كان يطمح من خلال هذه البعثة إلى تحقيق ما يلي

سياسيا : إنهاء سياسية الإقصاء و التهميش الذي كان يعاني منها البربر من قبل بعض الولاة

اقتصاديا : رفع المعاناة عن الساكنة بفعل الضرائب المجحفة التي أثقلت كاهلهم

اجتماعيا : محو الفوارق الاجتماعية و إحلال مبدأ المساواة و الإخاء بين العرب و البربر ، و يستشف ذلك من خلال الخطاب الذي وجهه عمر بن عبد العزيز إلى ولاة المغرب قوله <أن كل من كانت لديه لواتية فليخطبها من أبيها أو يرجعها إلى أهلها >

دينيا وثقافيا : نشر الإسلام و اللغة العربية و الثقافة الدينية و لأجل ذلك إخنارعشرة من كبار الفقهاء و التابعين و هم على التوالي :

1- أبو عبد الرحمن عبد الله بن يويدالمعافري
2- أبو مسعود سعد بن مسعود التنوخي
3- أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي
4- أبو تمامة بكر بن سوادةالجزاني
5- أبو سعد جعثل بن عاهانالرعينيالقتباني
6- اسماعيل بن عبيدة الله الأنصاري (أبي المهاجر المخزومي)
7- جبان بن أبي حبلي القرشي
8- طلقق بن جابان أو جعبانالفاريسي
9- وهب بن حي المعافري
10- إسماعيل بن عبد الله الأنصاري

ينظر تراكم هؤلاء في كتاب أبي العرب ـ طبقات علماء إفريقية ـ الدباغ معالم الايمان المالكي رياض النفوس

و من جهته تشيد كتب التراجم و الطبقات بالمكانة الدينية و الاجتماعية لهؤلاء الفقهاء الذين عملوا وفق ما هو مخطط لبعثتهم مما مكن المغاربة من تحقيق ما يلي :

أولا : التعمق أكثر و فهم أحكام الشريعة و مقاصدها من خلال تعدد مجالس العلم و حلقات الدروس التي كانوا يعقدونها في المساجد

ثانيا : الاشراف على تكوين جيل من طلبة العلم المغاربة في الكتاتيب بتحفيظهم القرءان الكريم و الحديث النبوي الشريف و نشر عمل أهل مكة و المدينة مذهب أهل السنة و الجماعة مما ساعد لاحقا في انتشار المذهب السني المالكي ببلاد المغرب

حصيلة و تقييم:

لا جدال أن البعثة العمرية قد نجحت إلى أبعد حدود في تمكين المغاربة من التعمق أكثر في فهم مقاصد الشريعة و أحكامها و التقليل من معاناة البربر على الصعيد السياسي من خلال سياسة الوالي اسماعيل الملقب بتاجر الله إلا أن ذلك لم يمنع من استمرا تدفق الأفكارالخارجية و بخاصة الصفرية و الإباضية إلى جانب المذاهب الكلامية كالمعتزلة و الأشاعرة ، مع استمرا المعاناة الاجتماعية بادرت العديد من القبائل المغربية و بخاصة زناتة إلى تبني أفكار الخوارج التي كانت سببا في تمردها عن السلطة المركزية بإعلان الثورة

ملاحظة:

المذاهب و الفرق وتأثيراتها في التواصل و التلاقح الفكري بين المشرق و المغرب تستل من المحاضرة السابقة حول الحركة المذهبية ببلاد المغرب

المحاضرة الثانية :

الحركة العلمية ودوروها في التواصل الثقافي بين المغرب و المشرق الإسلاميين

أ ـ دوافع الرحلات العلمية
ب- عوامل الاستقطاب
ج- أهم العلوم

توطئة:

حظي عدد كبير من علماء المغرب الذين هاجروا إلى المشرق العربي والأندلس باحترام و تقدير كبيرين على المستويين الشعبي و الرسمي، إذ أسندت إليهم أعلى المناصب الدينية و الأدبية بعد أن تحولوا من تلامذة متلقين إلى أساتذة مشاركين عن جدارة و استحقاق، و برزت مكانتهم أكثر سواء من خلال المدارس التي ترأسوها أو درسوا بها كقراء و محدثين و فقهاء في كل من مصر، والأندلس، وبلاد الشام، والحجاز يقصدهم الطلاب من شتى الأقطار للأخذ عنهم، أو من خلال مؤلفاتهم العلمية التي صنفوها في شتى حقول المعرفة،فأسهموا بذلك في بناء صرح النهضة العلمية التي عرفها المشرق في عهد الدولتين الأيوبية و المملوكية.

- دوافع الرحلات العلمية :

حدد جل الباحثين و المهتمين بالحركة الثقافية و العلمية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط أن تاريخ الهجرة(يعود إلى القرن الثالث الهجري، التاسع ميلادي، سواء كانت داخل المدن المغربية أو باتجاه المشرق الإسلامي، لتزداد أكثر خلال القرنين الخامس و السادس هجريين الحادي عشر و الثاني عشر ميلادي ، ولا جدال أن الدافع الديني وفي طليعته الحج إلى البقاع المقدسة شكل المحرك الأساسي لانتقال المغاربة، أما الغرض العلمي فيأتي الاهتمام به من منطلق ما تضمنه القرآن الكريم من الآيات التي تدعو إلى ضرورة طلب العلم وتحصيله وتعليمه للآخرين قال تعالى:« فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ » ومن الأحاديث النبوية قوله عليه الصلاة والسلام:« أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد »وحدث الشعبي فقال :« لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن يسمع كلمة حكمة ما رأيت سفره قد ضاع » .

هذا إلى جانب ما كانوا يطمحون إلى تحقيقه من الأجر في المرابطة على الثغور والجهاد ضد الصليبيين

فبينما فضل عدد منهم العودة، استقر بعضهم في هذه الحواضر لكن كأساتذة مشاركين لا طلبة مريدين، لأن البربر –كما سبق وأن أشرنا- اتهموا بمحدودية تفكيرهم وتطورهم الحضاري، فكانت أهم طريقة، لتجاوز هذا "الحاضر النفسي"والاجتماعي هو الرحلة إلى المشرق لتأكيد الذاتلاسيما وأن هذا

الشعور "الثقافي أفرغ في صورة إحباط جغرافي" تعكسه أسطورة الطائر الكوني إذ تشير الرواية التاريخية أن الظاهر لإعزاز دين الله أحد الملوك العبديين قال لوزيره:« إني أريد أن أسمع كلام المغاربة »، فأشار إلى أحدهم ويعرف بأبي مسلم الدقي فتحدث إليه إلى أن قاطعه الوزير قائلا:« بلغنا أن الدنيا شبهت بطائر المشرق رأسه وجناحاه الشام واليمن وصدره العراق وذنبه المغرب، فأجابه: صدقت، لكن الطائر الذي تعنيه هو الطاووس لأن أحسن ما فيه ذنبه مبعث الفخر والاعتزاز »

و تقوم شهادة الفقيه أحمد بن منتيل خير دليل على ما بلغه المغاربة من رقي فكري وحضاري، حين رأى أحد أئمة مساجد العريش بالقاهرة يقرأ الخطبة على الناس من ورقة معلقة بحذاء المنبر فأنحى باللائمة عليهم و قال:« أنتم أهل المشرق المنسوب إليهم البلاغة و الخطب على البديهة وتفتقرون إلى مثل هذا، ما رأيت مثله في شيء من نواحي المغرب و هم أضعف الناس في البلاد بما تقولون ».

و مع ذلك لم يكن لمثل هذه الآراء من تأثير على روح التواصل و مد جسور الأخوة و تمتين العلاقات بين المشرق الإسلامي و مغربه بالمراسلات و الإجازات و الزيارات، لأنه مهما اختلفت دوافع الرحلة من شخص لآخر فإن المقصد العلمي يبقى الأقوى و الأهم سواء كان صاحبها على قدر كبير من العلم أو بالقليل منه.

وبناء على ما تقدم، يمكننا طرح السؤال التالي: **هل كانت هجرة علماء المغرب إلى المشرق تهدف لإثبات قدراتهم العلمية، أم أن هناك أسباب أخرى دفعت بهم لأن يتخذوا من بلاد الشام والحجاز ومصر موطنا ومستقرا حتى قضوا نحبهم هناك؟**

الواقع أنه من خلال دراستنا لتاريخ المغرب خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس و التاسع هجريين، الثاني عشر و الخامس عشر ميلاديين الفترة موضوع البحث، يلاحظ أن المجتمع عرف جملة من التطورات مست مختلف جوانب الحياة، و ساهمت في إحداث تحولات كبرى في تاريخه الأمر الذي دفع بالعديد من أبنائه سواء من طلبة العلم أو غيرهم إلى الهجرة نحو بلدان العالم الإسلامي، هذا إلى جانب عوامل خارجية متعلقة بالحواضر المستقبلة لهم ساعدت كثيرا في استقطابهم.

- العوامل الداخلية:

ويمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

السياسية والعسكرية:

- انعدام الأمن و الاستقرار بسبب الحروب لاسيما بين صنهاجة وزناتة .
- تأثيرات الهجرة الهلالية و التي أحدثت تغيير هاما في بنية المجتمع و القبيلة و عدلت في الخريطة الديمغرافية لبلاد المغرب ككل، بعد أن اكتسحت كل البسائط و صيرتها خرابا على حد تعبير ابن خلدون، هذا من جهة و من جهة أخرى فإن الغزو النورماندي للسواحل المغربية شكل بدوره عامل بات يهدد أمنها واستقرار الساكنة

الصدامات العسكرية:

1- بين الحماديين و الزيريين سنوات 457ه/1065م 460ه/1067م، 510ه/1116م، 514ه/1120م جعل منطقة المغرب بؤرة للتوتر و انعدام الأمن،

2- بين الزيانيين و الحفصيين

الاضطهاد المذهبي:

لا شك أن الحركة الإصلاحية الدينية، والمذهبية التي قام بها الموحدون في ربوع المغرب الإسلامي قد أضرت كثيرا بالمذهب المالكي و علمائهخاصة و أنهم اعتمدوا سياسة الترهيب لفرض مبادئهم التوحديةالقائمةعلى نبذ الفروعو العودة إلى الأصول من الكتاب و السنة و فتح باب الاجتهاد، فبادروا عصرئذ إلى حرق الكتب المذهبية و تعرضوا لعلماء المالكية بالسجن و القتل، و تقوم شهادة عبد الواحد المراكشي دليلا قاطعا على عمق المأساة التي عاشها هؤلاء و ما تعرضت إليه كتبهم في عهد يعقوب بن يوسف (ت595ه/1198م) قوله:« لقد شهدت منها يومئذ بمدينة فاس يؤتى بها بالإجمال فتوضع و يطلق فيها النار و تقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي و الخوض في شيء منه و توعد على ذلك بالعقوبة الشديدة »وكان هدفه في ذلك محو مذهب مالك و إزالته من المغرب مرة واحدةو كسر حالتا الجمود و الحصار الذي ضربه المرابطون و الفقهاء على الفكر المغربي بعد أن وصف علماء المالكية بالتقليد و الجمود و الجهل و الطغيان و التجسيم و الكفر.

ونستنتج من حصاد ما سبق أن الحركة الإصلاحية التي تبناها الموحدون و إن ساهمت في ازدهار الحياة الفكرية بالمغرب الإسلامي، إلا أن المناخ السياسي العام الذي طبع الحياة الاجتماعية دفع بالعديد من طلبة العلم إلى الهجرة نحو المشرق بعيدا عن أعين و سطوة الخلفاء الموحدين.

الأزمات الطبيعية والاقتصادية:

لم تبدالمصادر المغربية اهتمامها لمختلف الأزمات التي عرفتها بلاد المغرب، وأن كل ما "جادت" بهجاء في سياق العرض التاريخي والسياسي، أو بما هو مثبت في حوليات بعض المؤرخين الذين اعتادوا الإشارة إلى الأحداث الطبيعية من مجاعات وأوبئة وزلازل وفياضانات وأعاصير والجراد، دون الالتفات إلى النتائج المترتبة عنها سواء اجتماعية كانت أو اقتصادية على اعتبار أن هدفها توثيقي بحت.

ورغم حالة العوزللنصوص ذات الصلة بالأزمات الطبيعية التي عرفتها منطقة المغرب ونمطيتها في الإسطوغرافيا المغربية، إلا أنها إشارات قد تفيدنا في استجلاء بعض مظاهرها لاسيما في الفترة موضوع البحث 6- 9ه / 12- 15م، وقد انفردت بعض المصادر بذكر السنوات العجاف التي حلت ببلاد المغرب، وانعكست سلبا على الوضع الديموغرافي لما حصدته من أرواح بشرية نتيجة تفشي الأمراض و الأوبئة دفعت بالعديد من الأهالي إلى الهجرة خوفا من شبح الجوع و انعدام الأقوات بسبب القحط الذي

عم بلاد المغرب،ففي الفترة الممتدة ما بين (616-619ه/1216-1220م) كانت المجاعة الكبرى بسبب الجفاف، اضطر الناس فيها إلى أكل الميتة و نبات الأرض، بل قاتلت القبائل بعضها بعض، كما اجتاح بجاية وباء الطاعون سنة 714ه / 1315موتكرر نفس الوباء سنة 749ه/1350م

الذي حصد آلاف من السكان، و أثناء الحصار الزياني عام 725ه/1327م عانى أهل بجاية من غلاء الأسعار حتى وهنت قواهم بعدما لم يجدوا ما يقتاتون به،كما تسبب زحف الجراد على المنطقة في إتلاف المحاصيل الزراعية و أوقع الناس في فاقة كبيرة.

صحيح أن المجاعات و الأزمات كانت تطال كل طبقات المجتمع غير أن سكان البادية كان لهم من الإمكانات والوسائل ما يقاومون به مثل هذه الشدائد كخزن الحبوب في الأهراء مثلا.

ويمكن أن نوجز مختلف الأزمات في الجدول التالي:

جدول يوضح الأزمات التي عرفها المغرب الأوسط.

السنة	نوع الأزمة	المنطقة	مظاهر الأزمة	المصادر والمرجع المعتمد
524 – 525ه 1129 – 1131م	قحط وجفاف	كل بلاد المغرب	نقص الإنتاج الزراعي	محمد المغرواوي: المرجع السابق، ص179.
535 – 540ه 1140 – 1145م	مجاعة	كل بلاد المغرب	هجرة المغاربة إلى الأندلس	ابن الزيات: التشوف، ص183 ؛ البيان المغرب: ج4، ص98.
537 – 547ه 1140 – 1145م	غلاء	جميع بلاد المغرب	شدة ودوام الغلاء	ابن الأثير: الكامل، ج11، ص125.
544ه - 1149م	حملات الوعظ والاعتراف	مناطق متعددة من بلاد المغرب	قتل الموحدون 32030 شخصا	البيدق: المهدي بن تومرت، ص102، 105.
457 – 460ه 1065 – 1061م	أزمات سياسية بفعل الصراع	بلاد المغرب	غياب الأمن والاستقرار في المنطقة	ابن خلدون: العبر، مج6، ص180، 181، 182.
510 – 514ه 1110 – 1120م	صراع سياسي (الحماديينوالزيريين)	بلاد المغرب	غياب الأمن والاستقرار في المنطقة	ابن خلدون: العبر، مج6، ص180، 181، 182.

616 – 619هـ 1216 – 1280م	القحط	عم كل بلاد المغرب	مجاعة كبرى حتى اضطر الناس فيها إلى أكل نبات الأرض	ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص84.
714هـ - 1315م	وباء الطاعون	تونس وبجاية	حصد العديد من الأرواح	ابن الطواح: سبك المقال لفك العقال، ص201، هـ2.
749هـ - 1350م	وباء الطاعون	تونس وبجاية	كثرة الأموات	ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص265.
749هـ - 1350م	الحصار الزياني	بلاد المغرب	غلاء الأسعار حتى وهنت قواهم	يحي بن خلدون: بغية الرواد، ص217.
القرن 7هـ	زحف الجراد	تونس وبجاية	إتلاف المحاصيل	الزركشي: تاريخ الدولتين، ص45.
القرن 8هـ - 14م 750هـ - 1380م	الوباء العام	بلاد المغرب	سقوط الكثير من الضحايا	ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، ص47.

وتضاف إلى هذه الكوارث الطبيعية متاعب أخرى تعرضت لها قبائل زواوة تجلت في الاستغلال الجبائي الذي تفرضه الدولة من مكوس و مغارم أثقلت كاهل المجتمع و زادت في معاناته.

ونستنتج مما سبق أن الظروف التي عرفها المغرب الأوسط عامة و زواوة على وجه الخصوص كانت من الأسباب التي دفعت بالعديد من الأسر الزواوية إلى الهجرة، سواء بالتنقل بين مدن المغرب أو الهجرة إلى بلاد المشرق.

عوامل الجذب والاستقطاب:

الواقع أن الدارس للساحة المشرقية يقف على جملة من المعطيات السياسية و الدينية والاقتصادية و الثقافية شكلت بدورها عامل جذب و استقطاب لكثير من طلبة العلم من المغرب الإسلامي الذي عانى من ويلات الانقسام و الحروب والاضطهاد المذهبي،الذي أفرز نتائج سلبية للغاية أضرتبشريحة عريضة من المجتمع لم تستطع التأقلم مع التطورات الحاصلة، لذا لم يتردد بعضهم للهجرة باتجاه مختلف حواضر المشرق الإسلامي، حيث أصبحت الظروف السياسية أكثر انسجاما بعد زوال حكم الفاطميين في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، ونجاح نور الدين الزنكي (ت 569هـ/1114م) في إعادة اللحمة ورأب الصدع بين المدن الشامية التي عانت من الفرقة والتشتت ردحا من الزمن، كما تمكن في الوقت نفسه من ضمان ولاء المصريين له عن طريق أنصاره من الأيوبيين

(569-650ه/1114-1252م) ومن هذا المنظور يمكن القول بأن نور الدين الزنكي (ت 569ه/1114م) وجد ضالته في الوافدين المغاربة لاسيما على صعيد الأفكار المذهبية لما كان يتطلع إليه في مشروعه الوحدوي منها:

- الوقوف في وجه المذهب الإسماعيلي الذي تجذر في البلاد الشامية و المصرية إبان حكم الفاطميين (362-567ه/973-1171م).
- الترويج للثقافة السنية.
- الوقوف فيوجه الخطر الخارجي الذي بات يهدد الدولة لاسيما بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة 656ه/1258م والتصدي لعدوان الفرنجة المتواصلعلى الساحل المتوسطي.

كما يمكن أن نتحسس أهمية الدور الذي قام به من خلال التسهيلات التي كان يقدمها للمغاربة، إذ لم يتوان في الإحسان إليهم وإحاطتهم بكل معاني التكريم والتبجيل، وحسب شهادة ابن جبير الذي يؤكد على هذا العطاء بقوله: « و من مناقب نور الدين رحمه الله تعالى أنه كان عينا للمغاربة الغرباء».

ولعل استقرار الأوضاع السياسية و تحسن ظروف المعيشة و النهضة العلمية التي لاحت ملامحها في البلاد الشامية، دفعت بابن جبير الذي دخل البلاد ما بين (581- 583ه/1185- 1187م) إلى دعوة أهل المغرب بالرحيل إليها فقال :« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات الكثيرة منها فراغ البال من أمر المعيشة و هو أكبر الأعوان و أهمها، فإن كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد و لا عذر لمقصر».

فربما كانت هذه الدعوة محفزا آخر للهجرة، فاتجه عدد كبير من المغاربة عامة والزواويين على وجه الخصوص إلى مختلف الحواضر المشرقية، ويستفاد من كتب التراجم والطبقات في الفترة موضوع البحث أن عدد المغاربة الذين فضلوا الاستقرار فقط دون حساب عائلاتهم أو الذين عادوا إلى وطنهم تجاوز خمسمائة من المغاربة

أما على الصعيد الاقتصادي فأرض الشام عامة وحسب ما أطلعتنا عليه كتب الرحلة تكتنز ثروات زراعية هامة مما سهل سبيل الحياة بها، فكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للإنفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، و ينهال الخير عليه من أهل الضيعة، و يلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء و متى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى حسب رواية ابن جبير،ناهيك عن حسن معاملة الشاميين للغرباء إلى جانب ما فطر عليه المغاربة من تواضع، الأمر الذي عزز من أواصر الأخوة بينهما و دعمها،غير أن ما استقبلته مصر لا يقل أبدا عن ما احتضنته بلاد الشام من العلماء المغاربةوذلك رغم الصورة القاتمة التي رسمها ابن سعيد حول مصر، لاسيما بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الأيوبيةالتي ضمت إلى جانب مصر، بلاد الشام والحجاز، وقد درج صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة سيرة سلفه نور الدين الزنكي في إكرام الوافدين من العلماء المغاربة

والاهتمام بهم، ومرد هذا الاهتمام بتقديري ليس فقط من أجل الاستعانة بهم في تسيير شؤون دولته على اعتبار الكفاءة العلمية التي تميز بها المغاربة كما استنتجت ذلك إحدى الباحثات، وإنما لأجل حاجته إليهم في محاربة المذهب الشيعي الذي تجذر في المجتمع المصري بدليل دور العلم التي أوقفها للمالكية، ليضمن بذلك ولاءهم الروحي والسياسي،ولأجل هذا الطموح أيضا أمر بمحو وإلغاء كل الرسوم و المكوس المفروضة على الحجيج إلى بيت الله الحرام، التي أثقلت كاهلهم و زادت من متاعبهم المادية لطول

السفروحسبنا دليلا على ذلك أنه راسل في هذا الأمر مكثر بن عيسى أمير مكة،يأمره برفع تلك المغارم.

أما أرض الحجاز فعلى الرغم من قداستها و مكانتها الدينية، إلا أن عدد المغاربة بها يبدو قليلا إذا ما قورن ببلاد الشام، و مصر، إذ اقتصر الأمر على فرق الصوفية المجاورين.

وقد يفسر قلة عدد المغاربة في أرض الحجاز إلى جملة من المعطيات منها:

أ- قلة الموارد الطبيعية.

ب- قساوة المناخ بفعل بيئتها الصحراوية.

جـ- قلة فرص العمل.

و قصارى القول فقد لعبت العوامل الاقتصادية دورا حاسما في تحديد وجهة العلماء المغاربة الذين اختار أغلبهم بلاد الشام لتوفر فرص العمل و عاملي الأمن و الاستقرار و رخص المعيشة، إلى جانب طبيعة الدمشقيين في إكرام الغرباء من علماء و طلبة على حد سواء.

الأسباب الثقافية:

سعى نور الدين الزنكي (ت 569ه/1174م) و من بعهده الأيوبيين (567-648ه/1171-1250م) و المماليك (648-784ه/1250-1382م) إلى انتهاج سياسة تعليمية تقوم على محاربة المذهب الشيعي، و إحياء علوم السنة التي - توقفت في عهد الفاطميين- لاسيما و أنها وجدت كل مظاهر الدعم و المساندة من قبل العلماء الذين أشادت المصادر التاريخية بدورهم الفعال في إيجاد صيغة توفيقية بين اللاهوت السني وعلم المنطق واعتماد المنهج العقلي الذي أرسى قواعدها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505ه/1112م).

ولأجل هذا الغرض شيدت المساجد و الزوايا و الخوانقو الربطو دور القرآن و الحديث والمدارس، التي شكلت بدورها عامل استقطاب للعديد من العلماء و الصوفية المغاربة الذين توزعوا بين بلاد الشام و مصر و الحجاز.

ومع ذلك لا يجب أن يفهم بأن كل هذه المؤسسات كانت تهدف فقط لمحاربة الرافضة، و إنما كان للوازع الديني دوره في نشر العلم و تثقيف المجتمع، فلقد حث الإسلام على ضرورة تحصيل العلوم و اكتساب المعارف، لفهم الأحكام الشرعية وبما ينفعهم في دينـهم ودنيـاهم على حد تعبيـر أحد الفقهاء.

لذا حرص الملوك و الأمراء و وجوه القادة الأثرياء في بناء دور العلم لما يأملونه من عظيم الأجر و الجزاء عند الله عز و جل.

والجدير بالملاحظة هو قلة دور العلم الخاصة بالمغاربة المالكية مقارنةبنظيرتها الشافعية و الحنبلية و الحنفية، إلا أن المذهب المالكي نال حظه من الاهتمام فقد أوقف نور الدين الزنكي (ت 569ه/1174م) زاوية بالمسجد الأموي للمغاربة، وأوقف عليها أوقافا كثيرة منها (طاحونتان) و حمام و دكانان، و سبعة بساتين و أرض بيضاء تغل وحدها خمسمائة دينار في العام، هذا إلى جانب ديارا أخرى لحفاظ كتاب اللهكما احتوت هذه الزاوية في إحدى جنباتها خانقة للصوفية يعيشون فيها حياة الملوك على حد تعبير ابن جبير.بعد أن كفاهم نور الدين الزنكي مؤن العيش و شضف الحياة.

و اقتفى صلاح الدين الأيوبي (ت 589ه/1193م) سيرة سلفه نور الدين في العناية بالمغاربة بأن أوقف لهم مدرسة أمها العديد من العلماء المغاربة و الأندلسيين

ولعل ما يسترعي الانتباه أن النظام الداخلي لهذه المؤسسات يوصي بضرورة القيام والانفاقعليها سواء من الأموال العامة أو الخاصة، و هو ما أكده ابن جبير قوله :" أن كل مسجد يستحدث بناءه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين بها".

و الملفت أيضا أن كل دور العلم التي أوقفت على المالكية سواء كان ذلك في عهد نور الدين أو سميه صلاح الدين و حتى في عهد المماليك، تداول على التدريس بها علماء مغاربة منها على وجه الخصوص المدرسة الشرابشيةوالصمصامية.

وفيما يبدو أن كثرة الجالية المغربية بالقدس الشريف دفعت بالأيوبيين (567-648ه/1171-1250م) و من بعدهم المماليك (648-784ه/1250-1352م) إلى وقف العديد من المؤسسات الدينية و الثقافية على هذه الفئة، إذ تذكر المصادر التاريخية في هذا الباب بأنه كان بمدينة القدس وحدها ستون مؤسسة ما بين مدرسة و زاوية و خانقاهتردد عليها لفيف من الطلبة المغاربة في شتى حقول المعرفة.

كما أوقف صلاح الدين خانقاه لشيوخ الصوفية المجاورين للمسجد الأقصىو اقتفى الملك الأفضل نور الدين سيرة أبيه صلاح الدين في الاعتناء بالمغاربة، و بنى لهم مدرسة و أسكنهم بجوار الأقصى في سكنات خصصها لهم حتى عرفت باسمهم حارة المغاربة، و تنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات في القدس الشريف للقادمين و الضاعنين و القاطنين

واقتدى المماليك سيرتهم في تقريب العلماء و الاهتمام بالغرباء و إحاطتهم بكل معاني التكريم و التبجيل، و من القرائن الدالة على ذلك أن الأمير تنكز الناصري نائب الشام بنى مدرسة و أوقفها على المالكية سنة (729ه/1328م)، وحسبنا أيضا ما أخبر به خالد البلوي أنه وقف على مسجد بالقدس كان مخصصا فقط للمغاربة المالكية.

وتفيد المصادر والمراجع التاريخية أنه توفر لبلاد الشام عدد كبير من الأوقاف العلمية (مدارس و خوانق و زوايا و ربط ودور القرآن والحديث والمساجد) قاربت نحو ثلاثمائة مكان أي ثلاث أرباع المدارس المشرقية كما استنتج ذلك أحد الباحثين،فشكلت بذلك عامل جذب و استقطاب للعلماء والطلاب المغاربة لاسيما وأنهم وجدوا بها كل مظاهر التكريم من قبل السلاطين والأمراء وحسن المعاشرة من الأهالي، الأمر الذي دفع بهم إلى الاستقرار في هذا القطر من العالم الإسلامي.

أما في مصر فلم تمض مدة طويلة على توليته الوزارة حتى قام صلاح الدين الأيوبي بفتح المدارس السنية لمحاربة المذهب الإسماعيليمنها الناصرية والصلاحية لأتباع المذهب الشافعي والقمحية

للمالكيةواليوسفية للحنفية، كما حول دار الغزل مدرسة للمالكية، و لم يمنعه واجبه العسكري، في مقارعة الأعداء من الاهتمام بالعلم و أهلهو حول الملك الصالح نجم الدين جزءا من القصر الفاطمي إلى مدرسة كبيرة عرفت بالصالحية و جعلها ذات أربعة أواوين لكل مذهب إيوان،كما تنافس الأمراء و الملوك و ميسوري الحال في بناء المدارس و رتبوا لها أرزاقا جمة من الأوقاف على وجوه البر.

و من القرائن أيضا أن القاضي الفاضل (ت 596ه/1192م) قام ببناء مدرسة بالقاهرة لتدريس المذهبين المالكي و الشافعي و أوقف عليها الأوقاف الكثيرة و كون بها مكتبة ضخمة احتوت على حوالي مئة ألف مجلد هذا عدا دار الحديث التي عرفت بالفاضلية و مكتبا للأيتام، و قد بلغ عدد دور الحديث في القاهرة وحدها عصرئذ نحو ثلاثة و سبعون مدرسة.

كما أن السلطان أبو الفتح لاجين الملقب بالمنصور أعاد ترميم مسجد ابن طولون و أنفق عليه الأموال الطائلة، ورتب فيه ثلاثون نفسا يتفقهون على مذهب الإمام مالك وشيخا يتفقهون عليه و مثلهم

على باقي المذاهب الأخرى، بالإضافة إلى طائفة من القراء يلقنون الصبيان و الأيتام و أجرى لهم أرزاقا جمة.

وللغاية نفسها أظهر اعتناءه بالحجيج، حين أمر بإسقاط كل ما كان يؤخذ منهم في جميع البلاد من الضرائب و المكوس، و أنفذ في ذلك كتبا إلى عماله و ولاته قرئت على منابر المساجد،و غدت مصر على عهد الأيوبيين و المماليك منارة للعلم و مقصد للطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي، و تقوم شهادة ابن خلدون دليلا قاطعا على ما وصلت إليه مصر من رقي و تطور حضاري إذ يقول عنها "و نحن لهذا العهد نرى أن العلم و التعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، كما أن عمرانها مستبحر و حضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع و تفننت، و من جملتها تعليم العلم و آكد ذلك فيها و حفظه ما وقع بهذه العصور بها منذ مائتين من السنين من بناء المدارس و الزوايا و الربط و وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة... و عظمت العائدات و الفوائد، و كثر طالب العلم و معلمه بكثرة جراياتهم منها و ارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق و المغرب و نفقت بها أسواق العلوم و زخرت تجارتها".

ولقي الطلبة المغاربة بها كل التسهيلات و المساعدات شجعتهم على البقاء لأخذ العلم و الإطلاع على أمهات الكتب و مجالسة الشيوخ و الفقهاء ممن ازدانت بهم حلقات الدرس، و أطبقت شهرتهم الآفاق أمثال العلامة ابن دقيق العيد (ت 667ه/1267م) والعز بن عبد السلام و الحافظ الشرف المرسي.

وقد نال عدد كبير من العلماء المغاربة حظهم الوافر من التعليم، بل أن منهم من أصبح أستاذا يؤخذ عنه كابن معطي الزواوي شيخ العربية و النحو في مصر كلها عصرئذ،

ودون أن نضاعف من عدد الأمثلة التي تشيد بما وصلت إليه مصر من مظاهر الرقي العلمي والتطور العمراني والثقافي، يكفي أن نشير إلى ما ذكره التجيبي (ت730ه/1330م) في مستفاد رحلته قوله:« وبهذه المدينة روضات الملوك العظيمة البناء البديعة الشكل كتربة الملك الأجل نجم الدين أيوب الملقب بالملك الصالح (توفي نهاية القرن السابع)، ولكل تربة منها قومه وقراء يتلون فيها كتاب الله، ولهم على ذلك أرزاق نفع الله واقفيها فطالب العلم في هذه المدينة وكذلك حافظ القرآن العظيم وإن لم يكن لديه طلب معاش محفوظ الجانب، ولأهل هذه البلاد في الاعتناء والأوقاف على وجوه البر عادة جميلة وشرف دائم وفخر مستمر، وأمر هذه المدارس والخانقاه للصوفية وروضات الأكابر في ازدياد، وبهذه القاعدة العلمية أيضا مارستان عظيم القدر، شهير الذكر، للمرضى وذوي العاهات ابتناه الملك الأجل قلاوون (ت689ه/1289م)،ورتب فيه الأطباء والخراج ومن يعالج المرضى ويتفقد أحوالهم بكرة وعشية، وجعل فيها من عقاقير الهند كثيرا مما لا يكاد يوجد إلا في خزائن الملوك وذخائرهم، وفيه من الكسي والأغذية ما يناسب ذلك».

ويتضح من حصاد ما سبقأن مصر، ومنذ أن أصبحت العاصمة السياسية للدولة، تحولت إلى قبلة لأهل العلم و مريديه في ظل جهود السلاطين المتعاقبين على الحكم، و أهل البر في توفير مستلزمات

هذه النهضة العلمية من مدارس و ربط و زوايا، ما وقفوا عليها الأوقاف الكثير و اختاروا لها جلة العلماء و أجروا عليهم و على طلبتهم الأرزاق و اهتموا بالوافدين، و وفروا لهم ما يحتاجونه من مساكن و أموال ليتفرغوا لأداء رسالتهم على أكمل وجه.

أما عن أوقاف أرض الحجاز فعلى الرغم من قلتها بالمقارنة مع مصر و بلاد الشام، إلا أن الحياة العلمية بها نشطت على نحو بالغ خاصة في العهد الأيوبي، و ذلك لتوافد عدد كبير من العلماء الذين عملوا على تغذية حلقات الدرس التي كانت تعقد يوميا بالحرم المكي، ونظرا لكثرة الوافدين من طلبة العلم المجاورين لأرض الحرمين، اجتهد عدد من أهل الخير و الصلاح في بناء الأربطة و وقفها على الغرباء الذين آثروا البقاء بجوار بيت الله الحرام، وذلك تأسيا بالناصر صلاح الدين الذي ثبت قاعدة الخدام في الحرم النبوي، يقومون على خدمة حجاج بيت الله الحرام.

و تقدم لنا المصادر التاريخية لائحة بأسماء الأوقاف من أربطة، و مدارس، نذكر من بينها

رباط الخيزران، البخارية، الدمشقية، موفق، ربيع، والتميمي.

ولقد أدت حلقات العلم و المسجد الحرام دورها في تنشيط الحياة العلمية و الثقافية في بلاد الحجاز زعامة، إذ لم تكن هذه الأخيرة تقتصر على الدروس فحسب بل كان يتم فيها مناظرة العلماء من المجاورين و الوافدين عليهم، و فضلا عن ذلك فإن مجالس بعض الأمراء تحولت إلى دار ندوات لكبار العلماء و الفقهاء.

و نستنتج من حصاد ما سبق أن كل الأوقاف التعليمية من زوايا ربط و مدارس سواء كان في بلاد الشام و مصر أو الحجاز، كان لها أبعد الأثر في استقطاب عددا كبيرا من العلماء المغاربة وساهمت في تعزيز أواصر الوحدة وتوثيق السند العلمي بين الطلاب وشيوخهم، كما تجلت في صورة الحجيج المغاربة إلى مكة والمدينة والتي ازدادت أعدادا مع مرور الزمن رغم بعد المسافة و انعدام الأمن، إذ بعد أداء فريضة الحج كانوا يحتكون بمشاهير العلماء في مختلف الحواضر العلمية حتى إذا ما طاب لهم المقام فيها و جذبهم إشعاعها العلمي أَبَوْ إلا أن يجعلونـها دار مقام و استقرار، ومـنالأمثلة على ذلك أن عددا من أسر المغاربة التي كانت تسكن حارة المغاربة بجوار مقبرة باب الصغير تقيم اليوم بحي اليرموكوقد أسهم أفرادها بجهد وافر في نهضة دمشق، وبرز دورهم أكثر في العلوم النقلية، كالقراءات والحديث والدراسات الفقهية وعلوم اللغة أو في بعض الوظائف السامية كالقضاء.

وفضلا عن الصلات العلمية وما نتج عنها من تلاقح فكري وثقافي بين علماء ونظرائهم من المشرق، أكدت مصادر الفترة موضوع البحث الترابط الروحي بين مختلف الطرق الصوفية المشرقية والمغربية، فقد أمدنا ابن الزيات في كتابه "التشوف" بعدد من الأعلام المشارقة الذين زاروا بلاد المغرب رغبة في توثيق السند وتأصيل الطريقة، مما يعطي الدليل على أن المد الوحدوي تأطر في وعاء الإسلام.

المحاضرة الأخيرة

الحواضر الإسلامية ودورها في الاشعاع العلمي بين الغرب الإسلامي و المشرق الإسلامي

أ- حواضر المشرق

1 – الحجاز { مكة و المدينة} مركز للدراسات الدينية { قراءات، تفسير،حديث،فقه}

3- بلاد الشام { دراسات فقهية}

4- بغداد{ فقه وعلوم اللغة .....الخ}

ب-حواضر المغرب

1- القيروان { مركز للدراسات الدينية و الأدبية }

2- بجاية{ حاضرة المغرب الأوسط } مركز الدراسات الدينية و التصوف

3- تلمسان { حاضرة الزيانيين }مركز للدراسات الدينية و التصوف و العلوم العقلية

جـ - حواضر المغرب الأقصى { فاس و مراكش و الرباط} مركز للدراسات العلوم الدينية و الأدبية

د – حواضر الأندلس { قرطبة – غرناطة –طليطلة–اشبيليا- الميريا–بالنسيا .....الخ } مركز للدراسات النقلية و العقلية .